حضارتنا.. وحضارة العولمة

د. محمد يحيى خراط*

إن الحديث عن الحضارة ومدلولات هذه الكلمة ليس بالأمر السهل ومع ذلك سنحاول أن نلقي شعاع ضوء على بعض ميزات الحضارة العربية والحضارة الغربية الحديثة وما تتعرض له الحضارة العربية في هذه الأيام من هجمات مركزة تستهدف مقوماتها وأسسها تحت مسميات كثيرة من بعضها العولمة، والشرق أوسطية، ونشر الديمقراطية..

---

* باحث في التراث العربي (وزير سابق) سورية

- العمل الفني: الفنان علي الكفري

فالحضارة في أبسط تعريف لها هي تعبير عن حالة شعب أو أمة تتمتع بمزايا قد تكون عرقية أو لغوية أو دينية أو ثقافية أو تاريخية، وهذه الأمة تعيش في بقعة من الأرض ولها نفس الآمال والتطلعات نحو المستقبل.

وإذا عُدنا إلى تعريف الحضارة في اللغة العربية لوجدناه: الحضارة هي الإقامة في الحضر أي في المدن والقرى بخلاف البداوة وهي التنقل في البوادي. ويقول ابن منظور في لسان العرب: «الحضر خلاف البدو والحاضر خلاف البادي.. والحضارة الإقامة في الحضر».

وبشكل عام فكل من كتب في فلسفة الحضارة كان له منطلقٌ مغايرٌ لمنطلق غيره في تحديد وفهم الحضارة.

وللحضارة عند الكتاب المُحدَثين معنيان أحدهما موضوعي مشَّخص، والآخر ذاتي مجرد.

أما المعنى الموضوعي المشخص فهو: إطلاق لفظ الحضارة على جملةٍ من مظاهرِ التقدمِ الأدبي، والفني، والعلمي، والتقني، التي تنتقل من جيل إلى جيل في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة. فنقول: الحضارة الصينية، والحضارة العربية، والحضارة الهلنستية، والحضارة الأوروبية، وهي بهذا المعنى متفاوتة فيما بينها، ولكل حضارة نطاقها (Aire) وطبقاتها (Couches) ولغاتها (Languages)، فنطاقها هو حدودها الجغرافية، وطبقاتها هي آثارها المتراكمة بعضها فوق بعض في مجتمع واحد، أو في عدة مجتمعات ولغاتها هي الأداة الصالحة للتعبير عن الأفكار السياسية والتاريخية والعلمية والفلسفية لتلك الحضارة.

وأما الحضارة بالمعنى الذاتي المجرد فتطلق على مرحلةٍ ساميةٍ من مراحل التطور الإنساني المقابلة لمرحلة الهمجية والتوحش، أو تطلق على الصورة الغائبة التي نستند إليها في الحكم على صفات كل فرد أو جماعة، فإذا كان الفرد متصفاً بالأخلاق الحميدة المطابقة لتلك الصورة الغائبة قلنا إنه متحضر. وكذلك الجماعات فإن تحضرها متفاوت بحسب قربها من هذه الصورة الغائبة أو بعدها عنها. ومع أن الصورة الغائبة للحضارات مختلفة باختلاف الزمان والمكان فإن اختلافها لا يمنع اشتراكها في عناصر واحدة. وتتألف هذه العناصر في زماننا من التقدم العلمي والتقدم التقني، وانتشار أسباب الرفاه المادي، وعقلانية التنظيم الاجتماعي، والميل إلى القيم الروحية، والفضائل الأخلاقية. فالكلام عن الحضارة بهذا المعنى لا يخلو من التقييم والتقدير، أي من الحكم على



الحضــارات بنسبتها إلى المثل العليا وعلى اتجاهها إلى الاشــتراك في عناصر متشابهة وبسرعة انتقال الأفكار والأشياء من إقليم حضاري إلى آخر.

والحضارة بمعنى ما مرادفــة للثقافــة، إلا أن هذين اللفظين - الحضارة والثقافــة - لا يــدلاّن عند العلمــاء على معنى واحــد، فبعضــهم يُطلِق لفــظ الثقافة على تنمية العقل والذوق، وبعضــهم يطلقه علــى نتيجة هذه التنميــة، أي على مجموع عناصر الحياة وأشــكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات. وكذلك لفظة الحضــارة، فإن بعضــهم يُطلقها على اكتساب الأخلاق الحميدة، وبعضهم يطلقها على نتيجة هــذا الاكتســاب، أي على حالة من الرقــي والتقدم في حياة المجتمع بكامله. وإذا كان بعضــ العلماء يطلــقُ لفظَ الثقافةِ علــى المظاهرِ الماديةِ، ولفظُ الحضــارةِ على المظاهرِ العقليةِ والأدبيةِ، فإن بَعضَهم الآخر يذهب إلى عكس ذلك، مــع أن لفظ الثقافة يدل عنــد علماء الأنتروبولوجيا على مظاهر الحياة في كل مجتمع، متقدماً كان أو متخلفاً، على حين أن لفظ الحضارة عندهم يدل على مظاهر هذه الحيــاة في المجتمعات المتقدمة وحدها. وخير وســيلة لتحديد معنى كلٍ من هذين اللفظين، هي إطلاق لفظُ الثقافةِ على مظاهرِ التقدمِ العقلي وحدَه، وهي ذاتُ طابعٍ فردي، وإطلاقَ لفظُ الحضــارةِ على مظاهرِ التقدمِ العقلــي والمادي معاً، وهي ذات طابع اجتماعي.

وفي رأي المؤرخ توينبي، فإن العامل الذي تقوم عليه الحضارة قائمٌ في التحدي، والإجابةِ على التحدي. ولربما قال توينبي ذلك لاعتبار أن الحضارة قد خلدت أكثر ما يكون في آثار الخلافات والصراعات وعمليات التغلب عليها وتجاوزها من قبل الإنسان. فرغم كل النزاعات توصلت الإنسانية إلى تحقيق توازنٍ تجلت من خلاله أهم إنجازاتها الحضارية.

ويقول سيجموند فرويد: «إن الحضارة الإنسانية، وأعني بها مجموعة ما تعالت بواسطته الحياة الإنسانية عن شروطها الحيوانية وما تميزت به عن حياة الحيوان – وإنني أندد بالتفريق ما بين الحضارة والمدنية – تُري المراقب كما هو معروف وجهين. إنها تحتوي من جهة على مجموعة المعارف والقدرات التي اكتسبها الإنسان لكي يتسلطَ على قوى الطبيعة ويكتسبَ من غناها ما يشبع حاجاته البشرية. وتشمل من جهة أخرى المؤسسات الضرورية من أجل تنظيم علاقات الناس ببعضهم ولا سيما توزيع الممتلكات التي حظوا بها».

و بإمكاننا القول أيضاً بأن الحضارة هي التقدم المادي والروحي للأفراد والجماهير على حد سواء.

وهناك من يقول بأن الحضارة مزدوجة الطبيعة فهي تحقق نفسها في سيادة العقل أولاً على قوى الطبيعة وثانياً على نوازع الإنسان.

أما فيما يتعلق بالحضارة العربية فإننا إذا نظرنا إلى الحضارة التي نشأت على الأرض العربية لرأينا أنها تتمتع بالغنى والتنوع المادي والفكري والروحي. ونستطيع أن نميز بين الحضارات التي نشأت قبل الإسلام وبين الحضارة العربية الإسلامية التي انطلقت من مكة لتصهر شعوباً وأمماً ذاتُ حضارات مختلفة وتصبغها بصبغة متميزة.

فقبل الإسلام وحتى قبل ميلاد السيد المسيح كانت بلاد الرافدين مهداً للحضارات السومرية والأكادية والبابلية، وفي سورية ظهرت حضارة إيبلا وحضارة ماري، وعلى الساحل السوري ظهرت حضارة أوغاريت وحضارة الفينيقيين، وفي جنوب سورية ازدهرت حضارة الكنعانيين في فلسطين كما ازدهرت حضارة عريقة في اليمن، وتبقى حضارة مصر القديمة متميزة على كل ما عاصرها من حضارات.

وقبل الإسلام تحديداً كانت هناك حضارة تدمر وحضارة الأنباط وحضارة قرطاج... أما في شبه الجزيرة العربية فعلى الرغم من قلة المظاهر الحضارية المادية إلا أن العرب في تلك المنطقة تميزوا بالبلاغة والفصاحة

وألفوا دواويناً من الشـــعر كانت شواهد على حياتهم الراقية الرفيعة.. فالكرم والضـــيافة والفصاحة والبلاغة والشجاعة كانت صفات متميزة في مجتمعات شـــبه الجزيرة العربية، فابـــن الحطيئة يقول لأبيه لما رآه بحيرةٍ لعدمِ توفر القِرى في بيتهم:

أيا أبتِ اذبحني ويسر له طُعما
ولا تعتذر بالعُدْم علَّ الذي طرى
يظن لنا مالاً فيوسعنا ذمّا

ومع بزوغ فجر الإسلام ظهر عاملٌ جديدٌ قويٌ وحدَ الشعوب العربية جميعها وصهرها في بوتقـــة واحـــدة هي دولةٌ تدين بالإســـلام وتحافـــظ على ديـــن غير المســـلمين، وتتكلم العربية، ولها خليفة واحد يقودها في الســـلم والحرب، وينظم شؤونها الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والدينية.

لقد تميزت الحضارة العربية الإسلامية بأنها كانت حضـــارة ذات قطبين أساسيين.. قطب روحي، وقطب مادي ولذلك نســـتطيع القول بـــأن الحضـــارة العربية الإســـلامية تأسســـت على صـــفاتٍ ماديةٍ سامية، وعلى صـــفاتٍ روحيةٍ ســـاميةٍ. فالإســـلامُ كما هو معروف يدعو إلى الأخلاقِ الحميدةِ والتسامحِ والأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ.. ومن جهة أخرى نظّمَ الإسلامُ حياةَ العربِ والمسلمينَ من الناحية الاقتصـــادية والاجتماعية والمعرفية فـــكان العلمُ وطلبُ العلمِ هدفاً أساســـياً لكل مســـلم ولا عجب في ذلـــك إذا علمنا أن أول آية نزلت من القرآن كانـــت «اقرأ» . ونتيجة لـ «اقرأ» ســـمت الحضـــارة العربية في شتى فروع المعرفـــة ومجالاتها، ففـــي الطب مثلاً بقيت كتب الأطباء العرب والمســـلمين تُدْرس وتُدرَّس في أوروبا حتى عصر النهضـــة، وفي مجال الرياضـــيات وضـــع الخوارزمي أُسس علم الجـــبر وعلم الحاســـبات، وفي الفيزياء والكيميـــاء وعلم الفلك وعلـــم العقاقير وفي الجغرافيـــة كان للعرب بـــاعٌ طويل غني عن التعريف. وهكذا استطاعَ العربُ أن يؤسسوا حضارةً زاهيةً امتدت من مشارق الأرض إلى مغاربها وأسســـت فيما بعد لبزوغ النهضـــة الأوروبية الحديثة.

وباختصـــار فـــإن الحضـــارة العربيـــة الإســـلامية قامت على أســـس دينية ودنيوية سامية منها:

١- «ادعُ إلى سبيلِ ربك بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة»

٢- «اعمـــل لدنيـــاك كأنك تعيشـــ أبداً واعمل لآخرتك كأنكَ تموتُ غداً»

٣- وصـــية أبي بكر لجنده في الفتوحات «لا تقطعوا شـــجرةً ولا تقتلوا شيخاً أو امرأةً أو طفلاً ولا تهدموا بيتاً..»

٤- لا فضل لعربيٍ على أعجميٍ إلاّ بالتقوى.

ومع أن الإسلام انتشر شرقاً وغرباً إلا أن بعضَ الشعوبِ غير العربية حافظت على خصوصياتها القومية وهذا ما سبب للدولة العربية الإسلامية فيما بعد بعض الإشكالات من قبل شعوب مسلمة غير عربية تحاول انتزاع الخلافة والقيادة من المسلمين العرب واضعةً الانتماء القومي في مرتبة أعلى من الانتماء الديني.

الحضارة الغربية الحديثة:

أما فيما يتعلق بالحضارة الغربية الحديثة فإننا نستطيع القول بأن لفظ «الحضارة الغربية» اصطلاح يُطلق على الحضارة الأوروبية والأمريكية على حد سواء، وبسبب تشعّب هذه الحضارة ولكونها نشأت في العصر الحديث التالي لعصر الحضارة العربية ولعصر النهضة الأوروبية، أصبحت تُدعى بالحضارة الحديثة تمييزاً لها عن الحضارات القديمة كالحضارة المصرية والحضارة الرافدية وحضارة بلاد الشام والحضارة الإغريقية والحضارة الغربية التي نشأت في أوروبا بعد أفول شمس الحضارة العربية الإسلامية.

وتمتاز هذه الحضارة بميزتين هامتين، أولهما أنها تؤمنُ بالعلمِ الطبيعي، وبأن العلمَ الطبيعي هو العالَمُ الحقيقي الذي يجب أن نصرفَ إليه اهتمامُنا ونصبَّ فيه جهودنا، وثانيهما إيمانها بالعقل المادي فقط، وبأن العقل المطلق هو ميزة الإنسان ومصدر تفوقه وتفرده، وبواسطته يفعل في الطبيعة ما يشاء فيطوّعها ويستثمرُ مواردَها. ولكن هذه الحضارةِ الحديثةِ مليئةٌ بالمتناقضاتِ مما جعل العصر الحديث يتحول إلى عصرٍ فريدٍ بإنجازاته وإمكاناته وخطِراً شديد الخطورة بمشكلاته وأزماته.

وإذا نظرنا إلى العالم من مشرقه إلى مغربه فإننا نستطيع القول إن هناك سماتٍ بارزةٍ تميزُ الحضارة الغربية الحديثة وهي:

١- تفرد الوضع الحضاري الحديث عن الأوضاع الحضارية السابقة:

فالوضع الحضاري الحديث والذي اعتمد بشدّة على العلم والتطور الناتج عن الحداثة، ونتيجة للقفزات العلمية في الحضارة الحديثة أصبحت هذه الحضارة تختلف عن أي حضارةٍ سابقة... صحيح أن الحضارات المصرية والرافدية والفينيقية والأوغاريتية ومن ثم الحضارة الإغريقية والحضارة العربية الإسلامية كانت متميزةً في تاريخ الحضارة العالمية، إلا أن التنوعَ الذي أنتجتهُ الحضارةُ الحديثة لا يمكن مقارنتِه بأي حضارة مضت وانقضت. فالحضارة

الحديثة تختلف فيها النتائج عما سبقها في زخم اندفاعها وسرعة تطورها وشدة تعقيدها والنواتج السلبية الناتجة عنها.

٢- استبداد الحضارة الغربية الحديثة وطغيانها على العالم:

إذا انتقلنا إلى العصر الحديث أو إلى العصر الذي بدأ فيه نور الحضارة العربية يخبو فإننا نرى أن الحضارة العربية قد أصبحت هدفاً لهجماتٍ مركزةٍ ومبرمجةٍ بدقةٍ تستهدفُ الذاتَ العربية والتراثَ العربي والتاريخَ العربي والوجودَ العربي، وتحويلَ الأمةِ العربيةِ إلى شراذم لا حضارة لها ولا قوة ولا حول، بل ربما كان المقصودُ – وكما قيل- إعادةَ العربِ إلى صحرائهم، أو تحويلَ البلادِ العربية إلى دويلاتٍ قَزَمَةٍ تقوم على أسس عرقيةٍ متباينةٍ وأديانٍ متنوعةٍ ومذاهبَ شتى، ولِتَكيد كل دولة لجاراتها ما استطاعت حتى لا تستطيعَ أيَ دولةٍ أن تبنيَ اقتصاداً أو صناعةً ذاتَ أهمية.

٣- ثورتا العلم والصناعة:

من أهم ما يُميز هذا العصر عن العصور السابقة هي الثورة العلمية والتقنية التي انبثقت فيه والتي تمعن في تبديل أوضاعه وأحواله. ففي مطلع القرن العشرين بدأت تظهر اكتشافات علمية جديدة عمَّت مختلف نواحي الحياة، ولكن الأهم والأبرز كان في مجال الأبحاث الذرية مما أدى إلى تطوير السلاح النووي واحتكار الغرب له، إلى أن كسرت هذا الاحتكار كل من الهند وباكستان وكوريا الشمالية.

٤- تضاؤل الحدود الطبيعية والعلمية:

لقد استطاع العلم الناتج عن الثورة الصناعية أن يضيق المسافات بين البلدان، فتيسرت سُبلَ الانتقالِ والاتصالِ وربطِ أطرافَها بعضها ببعض إما على الأرض مباشرةً أو بواسطة الأقمار الصناعية.

وفي مجال البحث العلمي نشأت شبكات عالمية تُدير أبحاثاً مشتركة مستفيدة من خبرات العلماء في مختلف الدول المتقدمة علمياً، وتضاءلت الفوارق بين المعارف والعلوم فاتصلت الكيمياء بالفيزياء وبعلوم الحياة، واتصلت الفيزياء بالميكانيك، وظهرت علوم جديدة تؤلف بينها. وكذلك الحال في العلوم الإنسانية فتداخلت السياسة بعلم الاقتصاد تداخلاً شديداً وكذلك بعلم النفس وعلم الاجتماع.

٥- تعقد الروابط والمشكلات الإنسانية:

إن الاتصال المتزايد بين الشعوب وتفاعل أحداثها وخبراتها وتداخل حقول المعرفة أدى إلى تداخل المشكلات الإنسانية بعضها ببعض، مما أدى في أحيانٍ كثيرةٍ إلى تضاربِ مصالحَ الشعوبِ المختلفة. فلقد أصبحت كل

قضية يواجهها شعب من الشعوب هي قضية عالمية، وكل مشكلة من مشاكله أضحت مُشكلةً حضاريةً أيضاً.

أمـام هـذه المعطيـات العالميـة المتغيرة والمتشـابكة والمعقدة لا بد لنـا من وقفة مع الـذات، ننظر أين نحن من تلـك التطورات والتحولات..

في نظـرة سريعة علـى المشـهد العربي نشاهد واقعاً مُرّاً ينطوي على ما يلي:

١- التقزيم التدريجي للشعور بأنَّ العربَ أُمةٌ واحدةٌ ذات حضارةٍ وتاريخٍ مشترك ولغةٌ مشـتركةٌ ممتدةٌ على رقعة جغرافية متصلة ضـمت هذه الأمـة آلاف السـنين، وكذلك فإننـا نرى بأن هناك من يحقن جسـم الأمة العربية بسموم الطائفية والعرقية والمذهبية في محاولةٍ لاهثةٍ للقضـاءِ علـى فكرةِ الأمة الواحـدة. وفي هذا المجال نرى أن الوسـائل المتبعـة لتحقيـق هـذه الأهـداف عديـدة ومتنوعة، ربما كان أبرزها القضاء على اللغة العربية الفصحى وإحلالِ لغاتٍ عاميةٍ محليةٍ لكي لا تكون هناكَ وسيلةَ تفاهمٍ مشتركةٍ بين الشعوب العربية.

٢- تعميق النظرة الإقليمية والجغرافية والاقتصادية الضـيقة: وفي هذا المجال يتم السـعي لفصـل المغرب العربي عن مشرقه بإبراز بعض خصوصـياته، أو بإبراز كيانات بترولية ذات غنى وثروة مادية تأبى الاقتراب من دول شقيقة لها أقل منها ثروة وغنى.

٣- تعميق التباين في المفاهيم السياسية والمجتمعيـة، وفي هـذا المجال يتـم التركيز والطلب على تحقيق الديمقراطية الغربية في بعضـ البلدان، وفي بلـدان أخرى يتم تعزيز النزعـة العشـائرية والقبليـة. وفي المجال السياسي أضـحت البلدان العربية تقسم من وجهة نظر أمريكية إلى ثلاث مجموعات، هي مجموعة دولٍ مارقةٍ، ومجموعة دول صديقة، ومجموعـةُ دولٍ بـينَ بينٍّ، وهـذه المجموعة الأخيرة تعمل أميركا على فرزها باسـتمرار إلى إحدى المجموعتين السابقتين.

٤- إذكاء روح الأنانيـة والفرديـة عند بعضـ الحكام العرب، وإيهامهم بأن كل دولة تطمع في مقدرات الدولةِ الأخرى، لتسـتغلها وتزدهـر على حسـابها، ناهيك عـن أن كلَ حاكم عربي لا يرضـى بحال من الأحوال ما رضيَ به رئيس سورية شـكري القوتلي عند قيام الوحدة بين مصر وسـورية سـنة ١٩٥٨ مضـحياً بلقب «رئيس الجمهورية» من أجل قيام دولة الوحدة، وليصـبح المواطن العربي الأول في دولة الوحدة.

☆ ☆ ☆

مـا العمل أمـام هـذا الواقـع العربي المتردي؟

لا بـد لنا من وقفة مع الذات، نستجمع مكامن القوة، ونستشعر مكامن الخطر.. إن النهوض العربي له مقوماتٍ وأسسٍ ولا بد لنا أن نشير إلى أن من أهم مقوماتِ النهوضِ من هذا الواقع المؤلم ومن أولوياته: التمسكُ بتاريخنا وبحضارتنا وبالأسسِ التي بُنيت عليها تلك الحضارة، وأوجدت للأمة العربية كياناً متميزاً، ومن أهم تلك الأسس اللغة العربية، فاللغة العربية هي خيط السبحة الذي يُمَسّك الشعوب العربية بعضها إلى بعضٍ وهو الجامع لها في عقد فريد، فإن انفرط هذا العقد تناثرت حباته، وضاعت، ولم يعد هناك ثمة عقد..

إن المحاولات التي تبذل لإضاعة اللغة العربية هدفُها إضاعةُ الشعورِ بالانتماء إلى العروبة، فما تمثله اللغةُ العربيةُ بالنسبة لأبنائها كثيرٌ كثير، فإن ضاعت اللغة من ألسنِ أهلِها ضاعت الأمة وأصبحت أمة خرساء غير قادرة على النطق والتعبير عن نفسها.

ومن مظاهر هذه الهجمة على اللغة العربية، تلك المحطات الفضائية التي تبث بلغة غير مفهومةٍ، مغرقةٍ في المحلية، بعيدةٍ كلَ البعدِ عن العربية الفصحى، فالإعلانات في تلك المحطات تحمل أسماء أجنبية وكأن لغتنا لا تستوعب أسماء تلك الإعلانات، وعندما يُقدّمُ برنامج أو نشرة أخبار بالعربية الفصحى فالأخطاء اللغوية فيه أكثر من أن تُحصى...

إنني أرى أن الوضع العربي خطير، والمستقبل غير مطمئن مادامت تلك النزعات والنزاعات والصيحاتِ الإقليميةِ والطائفيةِ والعرقيةِ تتعالى من هنا وهناك. لقد أصبحت الأمةُ العربيةُ بلغتها وتاريخها وتراثها هدفاً لقوةٍ جبارةٍ تريد أن تقضي على معالم الحضارةِ العربيةِ وعلى مختلف الحضارات العالمية، ومع ذلك فإن أمة ذات حضارة عريقة كالأمة العربية من الصعب أن تُقهر، ولكنني أكرر وأقول يجب أن نفكر في الأمر ملياً، وأن ننتبه لما يُحاك من حولنا، فالعدو قوي وأسلحته كثيرة ومتنوعة وفتاكة، ونحن ليس لنا إلا الحفاظ على عروبَتنا ولغتِنا وهويتِنا، فبهم نبقى وبدونهم نذوب ونذوب.

